



تتميز الفترة التي يعبرها العالم الآن بكونها مرحلة عدم استقرار في تراتبية القوى في النظام العالمي، نتيجة متغيرات في بنية القوة العسكرية والاقتصادية، وصعود توجهات وأيديولوجيات سياسية وأنماط من القيادة تتفاعل مع هذه المتغيرات وتديرها باتجاهات معينة، وهي مرحلة ليست استثنائية على اعتبار أنها تحصل دائماً في ظل سعي الدول الكبرى إلى تحسين موقعها في دائرة النفوذ العالمي.

ويكاد الحراك الدولي أن يشبه حركة البراكين في ثورانها وسكونها، فكما أن ثورانها متوقع على الدوام، إلا أن ذلك لا يمنع حصول فترات سكون طويلة أحياناً، وغالباً ما تبدأ نذر البركان بتصاعد الدخان من فوهته، كذلك تبدأ نذر الحراك الدولي بمؤشرات تجتمع هنا وهناك على شكل قطع منفصلة، لا تثبت أن تشكّل جميعها حقيقة لصعود دولة ما على مسرح السياسة الدولية كلاعب جديد يدير جزءاً من التفاعلات الدولية، ويطلب بحصة مناسبة لمكانته الجديدة في التأثير السياسي والاقتصاد الدولي.

هكذا تظهر اليوم روسيا والصين لاعبين جديدين يتحركان على مساحة التأثير والفعل العالميين، ويتحديان قواعد اللعبة وأصول الاشتباك التي حددتها الولايات المتحدة الأمريكية في العقدين الأخيرين، وعقب تحولها إلى قطب وحيد في منظومة القوة العالمية، حينذاك كان الاتحاد السوفيتي، الذي ورثته روسيا، قد دمرته عاصفة جيوسياسية هوجاء انتهت بتحطيم كيانه، وكانت الصين تخبئ رأسها خلف أمواج المحيط الهادئ طارحة على العالم الداخل عصر العولمة بانبهار، إغراء مده بالبضائع الرخيصة في مقايضة تبقي لها وحدتها الجغرافية ونظمها السياسي ونمط حياتها.

لاشك أن هذه الوضعية قدمت إغراء ماكراً للولايات المتحدة الأمريكية التي اكتشفت أن لديها فائض قوة كبير يزيد عن حاجة

التحديات الموجودة في العالم بعد زوال الخطر الشيوعي واستقرار أوروبا، وحضور أمريكا الجنوبية، فحملت واشنطن أساطيلها في رحلة بحث عن مخاطر مازالت باقية أو حتى محتملة لتحويلها إلى فرصة لاستعراض القوة تردد بها الكبار قبل الصغار، وليقع اختيارها على العراق وأفغانستان فيما بدا أنه ترجمة لشطحات استراتيجيتها الذين ذهبوا يستشرفون التحديات المحتملة لأمريكا في الأفق المُقبل، واتفقوا أنها موجودة في العالم الإسلامي.

وانتهت محصلة استعراض القوة الأمريكية إلى تصريف فائض القوة الموجود لديها بالفعل، مقابل تحطيم ركائز العالم الإسلامي في العراق وباكستان، وتعديل مراكز القوى فيه وبداية تمكين إيران، وكذلك بداية ظهور عودة لقوة الروسية وتحرك الصين للبحث عن موقع يتناسب مع مكانها الاقتصادية، وحجم فوائضها المالية الهائلة.

لقد علمنا حركة التاريخ أن القوة العظمى عندما تتحرك فإنها تذهب بعيداً عن جغرافيتها، وتترجم قوة حركتها في إمساك مفاصل جغرافية العالم، طرق مواصلاته موقع ثرواته، هكذا كانت بريطانيا في لحظة عظمتها وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا، أما القوى الناهضة فإنها تبدأ من غلافها الجغرافي عبر محاولات توسيعه والسيطرة على الأقاليم الحيوية القريبة منها، فيما يبدو أنها حركة ماكراً تهدف إلى سبر رُد فعل القوة الأكبر في النظام العالمي، والبناء على هذه الحركة، في حال نجاحها، استراتيجيات توسيع إقليمية شاملة، هكذا فعل هتلر عبر احتلاله الممر البولندي، وكذلك فعل بوتين في قسمه للأقاليم الجورجية والأوكرانية، وتفعل الصين في توسيع حدودها البحرية على حساب اليابان والفلبين ودول بحر الصين.

لكن أيضاً حركة التاريخ علمنا أن حراك الدول الناهضة لا ينتهي عند حدود الأقاليم المجاورة، فهذه لا توشك، بعد اعتراضات بسيطة من القوى الأكبر، أن تنتهي إلى بديهيات، تطويها التنازلات والصفقات وسياسات تبادل المصالح واستراتيجيات احتواء الخطر، حينذاك تبدأ الأطراف الناهضة بتوسيع جغرافية مصالحها ونطاقاتها الأمنية، وللمصادفة أنها غالباً ما تتركز في المناطق التي يوجد فيها ضعف بنوي قوي (اقتصادي وعسكري واجتماعي)، وتترافق هذه الإشكالية مع وجود موقع جغرافي متميز وثروات ابنة عصرها، بمعنى محركة لاقتصاد عصرها "الفح، القطن، الذهب والألماس، والنفط والغاز".

انطلاقاً من ذلك، طالما أنتج الحراك الدولي تغيرات جيوسياسية في مقلب الضعف، أغلب التشكّلات التي عليها الدول الضعيفة هي نتاج الحراك الحاصل في قمة هرم النظام الدولي، من مؤتمر برلين 1884 الذي قسم إفريقيا بين الكبار إلى سايكس بيكو 1916، وصولاً إلى تفتيت يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا في تسعينيات القرن الماضي، وكان مصائر الصغار تنتظر دائماً صعود وهبوط القوى الكبرى حتى تستقر أحوالها.

أين العالم العربي من التغيرات الجديدة؟

ما في شك أنه يقع في قلب المخاض، هناك خمس دول تقف في طابور التغيير تنتظر معرفة حدود وإمكانيات التغيير، سوريا والعراق واليمن ولبيبة ولبنان، جميع هذه الدول تقع تحت سؤال كيف سيكون التشكّل النهائي لها، بعد أن أنهت مرحلة التحضر، ولا شك أنها لن تكون الوحيدة التي ستتّسّير على سكة التغيير طالما بقيت محركات التغيير الدولية تشتعل على راحتها، وطالما لم ينبع العالم العربي استجابة توازي هذه التحديات.

المصادر: